أين أنت

بقلم

صوفى عبدالله

دقت الساعة عشر دقات ، وتململ مصطفى فى رقدته فوق الحشية المصنوعة من قش الأرز . واحس لعظامه طقطقة كتلك التى تصدر عن صوت اخشاب مستهلكة صنع منها اثاث عفى عليه الزمن فى ليلة قائظة الحرارة ... وسرت فى بدنه قشعريرة رغم ان الوقت كان منتصف اغسطس والحرارة المشبعة بالرطوبة تكاد تزهق الانفاس، وحاول ان يفتح عينيه المتعبتين ولكن جفونهما أبت ان تنفرج الا قليلا

عجبا ! اين هو ؟ ان الحجرة ليست حجرته ولم تقع عينه على هذه الاشياء من قبل ! ...

ومد يده فى وهن شديد يتحسس الحشية عن جانبيه ، وانفرجت شفتاه على صوت ضعيف :

ـ امى ... اين انت ؟

ولم يتلق جوابا على ندائه .. ولو انها اجابته لما امكنه ان يسمعها . فقد احس انه يسبح من جديد ... يسبح فى فضاء لانهائى . وقد تخفف من جسده وهو يحلق ويشرف على الكون من حوله ... وراعه منظر الخضرة والزهور والفاكهة تملأ الارض من تحته ...

هنا كان يحلم دائما ان يعيش .. طالما راوده هذا الاحساس فى احلام اليقظة وهو يقلب صفحات أحد الكتب المصورة التى اعطاها له عادل . عادل زميله فى المدرسة ، وصديقه الطيب... وكان يقول له كلما راى فرحه الغامر بها : ان عمه احضرها له من سويسرا.. ففى سويسرا يعيشون فى فيلات جميلة،

وكل فيلا محاطة بالزهور والفواكه وكل مااتمناه النفس ... وعادل من اسرة كبيرة ، غنية . يأكلون على الموائد الفخمة . ويسكنون فى منزل كبير . كبير جدا . فيه حجرات كثيرة . ولديهم تليفزيون وراديو. ولعادل حجرةمستقلة حجرة خاصة به وحده ، مع انه صغير مثله . فى مثل سنه تماما . فى الحادية عشرة من عمره . وله فيها سرير فخم عريض يتسع لأربعة اشخاص . وربما اكثر .. من يدرى ؟ ودولاب . ومائدة للزينة . ومكتب عليه قرص من البلور السميك . وسجادة كبيرة . وعلى المكتب اباجورة . فضلا عن مصباح مستدير كالكرة يتدلى من سقف الحجرة كالذى يراه فى المحال العامة .. ولديه العابكثيرة . لديه ميكانو ونرد ودومينو وقطار سكة حديدبسيمافوراته ومحطاته ولديه مكتبة خاصة فى حجرته حافلة بالكتب المصورة التى احضرها له عمه من سويسرا ومن البلاد الأخرى الكثيرة التى يسافر اليها دائما . وعمه رجل طويل . عريض . احمر الوجه.جهورى الصوت كان مصطفى يخافه كخوفه من والده تماما .

وعاودته رجفة شديدة مصحوبة برعب واحس بأسنانه تصطك : ها هو والده بعينيه المفزعتين يحاول ان ينتزعه من بين احضان امه وامه المسكينة تصرخ بأعلى صوتها . وتبكى وتولول . ولكن صوتها ضعيف مكتوم فهى خرساء ، لا تستطيع الكلام . لن يسمعها احد وهى تستعطفه ، وتجثو تحت قدميه كى يتركه لها ، لانها وحيدة وليس لها غيره فى الحياة ... ان اباه رجل قاس متوحش ... ها هو يرفسها بحذائه ثم يجذبه من ذراعه .. وذراعه يكاد ينخلع من جسمه ... ها هو يبصق فى وجهها ويتوعدها ويخرج مزمجرا صارخا وهو يسبها ويتوعدها بأنه حينما يحضر فى المرة القادمة لن يكون بمفرده بل سيعود ومعه شرطى ليأخذه منها بقوة القانون . واحس بأمه الحبيبة امه المسكينة .. أمه الوحيدة .. احسها تحتضنه بين ذراعيها بقوة ، وتبكى بمرارة فترة طويلة بعد خروج والده . لقد خرج وصفق الباب وراءه وهو يرغى ويزبد بسباب لا حصر له ...

وتاوه مصطفى وفتح ذراعيه وضمهما حول راس امه لقد استاثرت بذهنه المتفتح لمعرفة كل شيء كلمة غريبة سمعها لأول مرة فى حياته بين سيل الشتائم المألوفة التى تدفقتمن فم ابيه :

ـــ ما معنى هذه الكلمة يا امى ؟

وبصقت امه على الارض بتقزز . لم تكن تتفاهم بالكلماتوضمته الى صدرها وراحت تمطره بالقبلات ودموعها تجرى على خديه ورقبته وتنحدر الى قميصه المشجر. القميص الذى اعطته له«الست شمائل» صاحبة البيت الذى يقطنان فى حجرة من حجرات الدور الأرضي فيه .. وكان يلبسه مع البنطلون البلوجينز الأزرق البنطلون الجميل الذى اشترته له امه من الاوكازيون . وهو يزهو به امام الزملاءمن تلاميذ المدرسة . انه مزين بأزرار ذات خيوط حمراء . وجيوب من امام وخلف . وله حزام تتدلى منه مطواة للزينة . وفوق الجيوب زخارف .

... وتساقطت الدموع من عينى مصطفى . لقد مزقه له والده وهو يحاول انتزاعه من بين احضان امه . تمزق جيب البنطلون .. وراح يبكى

على البنطلون اكثر من بكائه على ذراعه « المملوخ » نسي آلام ذراعه وواسته امه . وخاطته له ، ولكنه لم يعد جديدا كما كان ... فيه رتق يبدو واضحا للعيان يداريه مصطفى باستمرار : يضع دائما يده عليه لكي يخفيه عن اعين التلاميذ حتى لا يشمتوا به ...

لقد سأله عادل يوما من اين احضره فأخبره . اخبر عادل فقط ، اما الآخرون فلم تخبرهم حتى لا يلبسوا مثله . ويوم رأى شهابا يلبس واحدا مثله تماما تملكته الحسرة ولكنه استطاع ان يجد فيه عيبا اراه للتلاميذ واكد لهم ان بنطلونه افضل . وصدقه التلاميذ . عادل على الأقل صدقه . رغم انه كان يعلم ان بنطلون شهاب افضل .. لقد وعد امه انه سيتفوق ويذهب الى سويسرا ويأخذها معه ، وهناك يسكنان في فيلا جميلة حولها زهور وفواكه وخضره لن يعرف والده مكانهما ، هناك يعيشان في سعادة ويأكلان على مائدة فخمة مثل اهل عادل . ويحضر لها ملابس جميلة خضراء وحمراء وصفراء . وتصبح اجمل امراة في العالم ..

واشارت له امه اشارات بسبابتي يديها مجمعتين ، تريد ان تسأله وعيناها تضحكان :

ـ الن تتزوج يا مصطفى ؟

واقسم لها انه لن يتزوج بغيرها . سيتزوجها هي . اليس والده قد طلقها لماذا اذن لا يتزوجها هو ؟ .

فقالت له بالاشارة والنظرة المنكرة الضاحكة في آن واحد :

ـ الابن لايتزوج امه .

وطمأنها قائلا بكل يقين .

ـ في سويسرا يتزوج الابناء من امهاتهم اذا شاءوا ... فدقت صدرها صائحة بأصواتها المبتورة ، فأدرك انها تسأله :

ـ من قال لك هذا ... ؟

فأجابها وهو يهز راسه هزة العليم :

ـ لقد قرات في الكتب . وكذلك اخبرني عم عادل وهو يزور سويسرا كثيرا ومختلط باهلها ويقصون عليه كل اخبارهم... الناس كلهم هناك يتزوجون امهاتهم ... !

وتضحك امه وتضمه الى صدرها وتقبله وتتمنى له ان يكبر ويتزوج ويسعد بزوجته وهي تربي له اولاده ... وينهرها غاضبا انه لن يتزوج من غيرها طوال حياته .

واحس مصطفى كأنه يسبح في بركة من الماء : وضايقه التصاق الملابس بجسمه ، فهم بالجلوس بيد انه لم يستطع . أحس بتخاذل في جسمه ، ووهن في اعضائه ..

اين امه ؟! لماذا لا تأتي لتراه ؟! اين ذهبت ؟! ابدا لم تتركه قط ينام بمفرده ! ابدا لم تبتعد عنه ! .. كانت تأتي اليه قبل ان يطلبها ... كانت اول ما يفتح عليه عينيه في الصباح . ولكن العتمة تملأ الحجرة . وليس من عادتها ان تترك الحجرة مظلمة في الليل ، فهي تعلم انه يخاف العتمة .. اين ذهب المصباح الساهر الذي كانت تعلقه في المسمار على الحائط امامه ؟! لقد كان يتبين كل شيء على نوره الضعيف في حجرتهما الصغيرة . الدولاب . والكنبة العرجاء ،

والمنضدة الصغيرة التى كان يكتب عليها واجباته المدرسية . وكرسيه الخيزران. والطبلية التى يأكلان عليها هو وامه .. نعم انهما يأكلان الآن على طبلية لأن والده ليس معهما كوالد عادل . ولكنه حينما يكبر ويأخذها الى سويسرا سيأكلان على مائدة فخمة . وسيحضر لها حجرة نوم كحجرة والدة عادل.. انه لم يرها الا من بعيد ، وهو يعبر الدهليز الى حجرة عادل ... ولكنه لمح بها مرآة كبيرة جدا . مرآة تغطى معظم الحائط موضوعة فوق زجاج بلورى كبير عليه زجاجات من جميع الاحجام والاشكال... وام عادل لها رائحة جميلة ، رائحة شهية ... وسوف يحضر لامه زجاجات كتلك التى عند أم عادل . وثيابا ايضا مثل أم عادل . وامه حين تلبس وتتعطر سوف تصبح اجمل من ام عادل . وسيعلمها كيف تمشي وتتبختر كأم عادل ...

ووالده . ربما عاد والده ليعيش معهما . ولكنه لا يحبه لانه قاس . كان طول عمره يحلم بأن يعود اليهما .. وكانت امه تقول له : سيأتى يوم يأخذك فيه والدك . وكان يبكى ويتعلق برقبتها ويتوسل اليها الا تتركه لوالده ... ثم يهدأ فوق صدرها ويسألها :

— وكيف شكل والدى يا امى ؟

كان يظن ان والده مثل والد عادل . طويل نحيف ، ابيض الوجه ، طيب لطيف .. والد عادل كلما رآه يسأله عن دروسه .. فهو أول الفصل دائما ، وعادل الثانى من بعده . كان الفرق الذى بينه وبين عادل لا يقل عن عشر درجات ، واحيانا يزيد ... ووالد عادل يحبه ... وعادل أحيانا يعطيه من ملابسه الداخلية ويقول له ووجهه يحمر لا يدرى لماذا ؟

— خذ هذه يامصطفى لانى اريدك ان تلبس مثلى ...

انه يحب عادل ، ويحب أن يلبس مثله ومن ملابسه أيضا .. اما والده فمنظره مختلف كل الاختلاف عن والد عادل ... فهو قصير ، سمين ، داكن اللون ، له شفتان غليظتان وعينان قاسيتان ، وشعر اسود جعد . وحينما رآه منذ سنتين لأول مرة فى حياته لم يربت عليه ولم يأخذه فى حضنه كما تفعل والدته ... ولم يسأله عن دروسه كما يفعل والد عادل ... بل جلس يكلم والدته فى خشونة أرعبته وجعلته يتجمد فى مكانه من ركن الحجرة . ثم ضاق بها وانتفض يهجم عليه ! ففزع الى حضن امه فانهال على ذراعه يحاول انتزاعه بقسوة ... واستماتت يدا امه عليه ، ومزق له جيب بنطلونه الكحلى... وخرج وهو يتوعد بأنه عندما يحضر فى المرة القادمة لن يكون بمفرده . سيكون معه شرطى ليأخذه منها بقوة القانون . لقد كرهه منذ هذه اللحظة وتمنى الا يعود ...

وأن مصطفى أنينا خافتا . وتنبه الى نفسه قليلا ... وعاد ينادى بصوت واه !

— امى ... اين انت ؟

وشعر بيد تتحسس جبينه . لابد انها يد امه . وحاول ان يرفع يده ليمسك بها . واراد أن يستدير على جنبه ليلتصق بجسد امه ، ولكنه لم يستطع ان يرفع يده ، ولا ان يتحرك من مكانه احس

يده بجانبه ككيس من الرمل ، اما جسمه فكتلة من الحجر راسخة على الارض .

لماذا لا ترد على ندائه ؟

ها هو يراها فى ملابس زاهية جميلة تخطر كأم عادل ، وتتضوع برائحة عطرة .. تنظر اليه من بعيد ولا تقترب منه ، وراح يشير اليها ويناديها ولكن صوته احتبس فى حلقه ولم يصل الى شفتيه ! .. العلها لا تراه ؟ انها مزهوة بنفسها وبملابسها وجمالها تذهب وتجيء كأنها تطير فوق الارض ! دون ان تعنى نفسها بالقاء نظرة عليه ! ..

اتكون قد نسيته ؟ العلها نسيت ان لها ابنا اسمه مصطفى ؟! لماذا تتحاشى النظر اليه ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

وجمع كل قوته وصاح بقدر ما اسعفته حنجرته !

ـ امى ! الا ترينني ؟!

ونبهه صوته ، ففتح عينيه فاذا بصيص من نور خافت يتسلل من فرجة باب يفتح على مهل وفى حذر شديد . واطل راس اشعث داكن يتبعه جسم ضخم انحشر فى فرجة الباب ، وامتدت قدم الى داخل الحجرة وانفرج الباب ليسمح للجسم بالدخول . وفتح مصطفى عينيه على سعتهما وقد اطل منهما ذعر شديد وهو يرى والده بشعره الاشعث ، وجسمه الضخم ، كأنما سينقض عليه . وصرخ صرخة مروعة واغلق عينيه وانتابته رعشة :

ها هو قد عاد مرة اخرى ... عاد فى هذه المرة ومعه الشرطى ... عاد ليأخذه من امه بحكم القانون .. فالقانون يحتم عليه ان يذهب الى والده فى سن التاسعة ، ولكنه تركه حتى بلغ الحادية عشرة . تركه ينعم بحضن أمه هاتين السنتين ... لقد توعدها وها هو يبر بوعيده ...

ورفع يديه فى ذعر . وتعلق بعنق امه ... كانت ترتجف .. لم تتكلم ... البسته افضل ما عنده : قميصه المشجر وبنطلونه الأزرق المحلى بالرسوم والازرار والمطواه . كان يخلعهما عند ما يعود من المدرسة وتضعهما ـ بعد ان تنظفهما جيدا ـ فى الدولاب ، وتلبسه جلبابه . وفى هذا العام فكت ثنية البنطلون واصلحته له لانه كبر ... ووضعت له ملابسه الباقية فى بقجة امسكتها فى يدها وامسكته هو باليد الأخرى ... كان الرعب يملؤه وهو يتشبث بيدها لا يستطيع النظر الى وجه والده .. وخرجت به وفى اثرها خرج والده .. والشرطى .. ومشوا ... مشوا حتى وصلوا الى محطة الرمل ..

وهناك ... هناك عند اشارة المرور مد والده يده ليأخذه منها وركعت امه على الارض واحتضنته وجعلت تقبله فى صمت فى راسه ووجهه وعينيه وفمه وخديه وهو متشبث بها .. يبكى فى حرقة . وضاق والده بهذا العناق الذى ان ينتهى ، واثارته نظرات الناس المتجمعين فى فضول ، فمد يده وانتزعه منها فصرخت بصوتها الاعجم .. وهى تشير بيديها تستعطفه ، ولكنه كان قد فقد صبره امام نظرات الاستياء التى يرشقه بها الناس فهوى بيده على راس مصطفى ليترك يد أمه التى تشبثت به ، وصرخ مصطفى ، وولولت الام ، وخطا الاب خطوتين وهو يجره جرا ليعبرا الشارع بينما كان يتملص من بين

يديه .. وفتحت اشارة المرور وظهر النور الاحمر ، وتوقف المارة لعبور السيارات.ولم يأبه والد مصطفى لرتل السيارات . ولم يأبه والد مصطفى لرتل عسكرى المرور وهو يأمر بالتوقف ... واخترق الشارع وهو ينتزع مصطفى من الارض انتزاعا ويجرجره خلفه وهو يصرخ بأعلى صوته ويتوسل لأمه ان ترحمه ... والام تولول على الطوار والشرطى يمنعها من اللحاق به ... والسيارات تطلق ابواقها وتمرق فى جنون ...

وهوى والده بكل قبضته على أم راسه ، واتبعها برفسة قوية من حذائه الضخم فى وسط ظهره ... ولم يستطع مصطفى ان يصرخ لان الدم انبثق من انفه وهوت ركبتاه على الارض وقبل ان تبتلعه دوامة الغيبوبة سمع اصواتا من حوله تقول باستفظاع !

ـ ابوه ؟ مستحيل !! لا يمكن ان يكون أباه !

وشعر بنار تلسع وجهه . ثم احس بشيء رطب على جبهته ، ومن خلال اهدابه المنفرجة رأى والده بجسمه الضخم يجثم بجانبه على الحشية ، ويغمس خرقة فى طبق به سائل له رائحة الخل ... ثم وضعها على راسه وغمس الأخرى فى الطبق ... واخذ بيده المحلول وراح يدهن كفيه وذراعيه ، ثم تحول الى رجليه يدلكهما ببطء وحنان بالمحلول .. !

واطبق مصطفى اهدابه وهو يستمرىء اللمسة المترفقة : انه ليس رهيبا جدا بعد كل شيء ...

وتمتم والحذر يزحف الى جفنيه مرة اخرى :

ـ سآخذه معنا الى هناك ... سنكون ثلاثتنا معا ...